23 اكتوبر 1990
من وحي زيارتي للمنكب بالأندلس لتسلم جائزة ابن الخطيب
وقد وقفت بها على تمثال عبد الرحمن الداخل.

فِي ذِكْـرَى ابن الفاتح إدريس

# ذِكْـرَاكَ

يَـاهبَّـةً مِن صَبَـا فَـاسٍ وَوَادِيهَـا
ذَكَّـرْتِنِي الغُـر مِن أيَّـامِ مَـاضِيهَـا
أنَـا المشُـوقُ فَمَـا تَشْـدُو مُطَـوَّقَـةٌ
إلاَّ تَـذَكَّـرْتُ مِنْ شَـوْقِي مَغَـانِيهَـا
وَلاَ شَمِمْتُ شَـذَا زَهْـرٍ فَـأنْعَشَنِي
إلاَّ تَـوهمتُـهُ رَيَّـا رَوَابِيهَـا
ذَكَـرْتُهَـا فَـذَكَـرْتُ المَجْـدَ مُـؤتَلِقـاً
وَالعِـزَّ كَـالتَّـاجِ فِي أعْلَـى نَـوَاصِيهَـا
عَـادَت لأحْضَـانِهَـا بَغْـدَادُ ثَـانِيَـةً
وَعَـانَقَت شَهْـرَزَادٍ فِـي لَيَـالِيهَـا
جَنَّـاتُهَـا الخُضْـرُ نيْـرُوزٌ وَكَـوْثَـرهَـا
يَنْسَـابُ شُهـداً مُـذَابـاً فِي سَـوَاقِيهَـا

تُسَـــافِـــرُ العَيْنُ فِي آفَـــاقِ رَوْعَتِهَـــا
مَبْهُـــورَةَ الشّـــوْقِ لاَتَسلُـو مَجَـــالِيهَـــا
كَمْ أنْجَبْـت مِنْ مَهَـــــارَاتٍ وَكَـمْ طَلَعت
بِأفْقَهَـــا أنْجُمٌ تَجْلُـــو دَيَـــاجِيهَـــا !
وَكَمْ كُنُـوزٍ بِهَـا حُـــبْـلَى تُخَبِّـــئُـــهَا
سَيَكْشِفُ العِلْمُ يَـــوْمـــاً عَـن لآلِيهَـــا !
كَأنَّ غَـــرْنَـــاطَـــةَ الحَمْـــرَا وَقُـــرْطُبَـــةً
قَـــدْ أوْدَعَـــا كُلَّ مَـــوْرُوثَيْهِمَـــا فِيهَـــا !
تَسَتَقْبِـــلاَنِكَ فَنـــاً فِـي جَـــوَامِعِهَـــا
وَفِي القُصُـــورِ وَفِي أزْهَى مَبَـــانِيهَـــا
تَـــزْهُـو المَـــدَائِنُ بِـالعُمْـــرَانِ تَـرْفَعُـــهُ
وَفَـاسُ تَـــزْهُـو بِمَـا تُـوحِي مَعَـــالِيهَـا
كَمْ خَلّـــدَت فِي سِجِلِّ المَجْـــدِ مِن قِيَمٍ
وَكَمْ شَـدَا بـأغَـانِي النَّصْـرِ شَـــادِيهَـا !
قَـــدْ ألْبَستهَـــا يَـــدُ الأمْجَـــادِ ألْبِسَـــة
قَشِيبَـــةً يَتَحَـــدَّىٰ الـــدَّهْـــرَ بَـــالِيهَـــا

* ● *

جَـرَى إلَيْهَـــا سَبُـو شَـــوْقـاً لِيَمْنَحهَـــا
خِصَبـــاً وَيَـرْقُصَ زَهْـــراً فِي مَـرَاعِيهَـــا

وَتَكْتَسِي الأرْضُ فِي آذَارَ أرْدِيَةً
مُطَرّزَاتٍ بِأزْهَارٍ حَوَاشِيهَا
مَطَارِفٌ مِنْ نَسِيجِ الزَّهْرِ غَالِيَةٌ
وَفِتْنَةٌ مِنْ رَبِيعٍ جَلَّ مُنْشِيهَا
رَبِيعُ فَاسٍ فَرَادِيسٌ مَبَاهِجُهَا
هِيَ الوَضَاءَةُ فِي أسْمَى مَعَانِيهَا !
تَبْدُو السَّمَاءُ بِهَا زَرْقَاءَ ضَاحِكَةً
كَأنَّمَا البَحْرُ يَجْرِي فِي أعَالِيهَا
لِكُلِ فَصْلٍ بِهَا طَعْمٌ يِطِيِّبُهُ
وَكُلُّ عِيدٍ بِهَا حُسْنٌ يُوَاتِيهَا !

* ● *

كَأنَّهَا شَامَةٌ فِي وَجْهِ مَغْرِبنَا
وَإنْ رَآهَا قَذىً فَي العَيْنِ قَالِيهَا !
أوْ أنَّهَا قِصَّةٌ فِي المَجْدِ مَا انقَطَعَتْ
يَوْماً حَوَادِثُهَا أوْ مَلّ رَاوِيهَا !
أسْوَارُهَا السُّمُر وَالأبْرَاجُ شَامِخَةٌ
تُنْبِيكَ أقْدَارُهَا عَنْ قَدرَ مُعْلِيهَا
مَا كَانَ فَاتِحُهَا إدْرِيسُ مُعْتَسِفاً
لَمَّا تَخَيرَهَا، وَاخْتَارَ أهِلِيهَا !

دَعَـا لَهَـا بِـدُعَـاء الخَيْـرِ فَـانْفَتَحَتْ
لَـهُ السَّمَـاءُ، وَلَبَّى اللَّـهُ دَاعِيهَـا

* ● *

يَلُـومُنِي عَـاذِلِي فِيهَـا وَيُـوهِمُنِي
أنِي بِبُعْـدِي عَنْهَـا سَـوْفَ أسْلُـوهَـا
وَلَـوْ رَآهَـا بِعَيْنِي مَـرّةً لَـرَأى
دُنْيَـا مِن الحُسْنِ تَسْبِـي عَقْلَ رَائِيهَـا
لَمْ أنْسَ جَـامِعَهَـا المَعْمُـور دَافِقَـةً
حِيَـاضُـهُ تَـرْتَـوِي مِنْهَـا صَـوَادِيهَـا
صَلّيْتُ لِلّـهِ فِي مِحْـرَابِ جَـامعهَـا
وَارْتَـدتـهُ كُلَّمَـا نَـادَى مُنَـادِيهَـا
لِلّـهِ بَـانِيَـةٌ ! شَـادَت قَـوَاعِـدَهُ
وَبَـارَكَ اللّـهُ مَـا أرْسَتْـهُ أيْـدِيهَـا !
قَـدْ شَـرفَت كُلَّ أُنْثَى وَهِيَ صَـائِمَـةٌ
تَبْنِي مَـدَامِيكَـهُ فِيـهِ وَتُعلِيهَـا
خَلِيَّـةٌ لَـمْ تَكُنْ تَخْلُـو مَنَـابِـرُهَـا
وَرَوْضَـةٌ لَمْ تَكُـنْ تَغْفُـو شَـوَادِيهَـا
كَـانَتْ مَنَـارَةَ إشْعَـاعٍ وَمُعْتَصِمـاً
لِلـدِينِ وَالضَّـادِ تَحْمِيـهِ وَيَحْمِيهَـا !

وَقَلْعَـــةً تَتَحَـــدَّى كُلَّ عَـــاصِفَـــةٍ
وَمَعْقِـــلاً كَـــانَ يْخَشَـــاهُ أعَـــادِيَها
مَضَى الـــزَّمَـــانُ بِأمَجْادٍ وَمَـــا بَقِيَتْ
إلاَّ مَتَـــاحِفُهَـــا الَخرْسَـــا نُنَـــاجِيهَـــا !

* ● *

تَلْقَـــاكَ مُطْـــرقَـــةً فِي صَمْتِهَـــا عِبَرَ
وَرَهْبَـــةٌ مِـنْ غَـــدَ أمْسَـى يُعَنِّيهَـــا
عَلِيلَـــةٌ لَمْ تَـــزَلْ تَشْكُـــو بِـــلاَ مَلَلٍ
وَلَمْ تَـــزَلْ تَتَمَنّى مَـنْ يُـــدَاوِيَها
أتَيْتُهَـــا فَغَضَضْتُ الطَـــرْفَ مُنْصَرِفـــاً
وَمِـلْءُ نَفْسِي هُمُومٌ لَسْـتُ أخْفِيهَـــا
غَـــابَتْ وُجُـــوهٌ وِضَـــاء كُنْت أُكْبِرهَـــا
وَخَيَّـمَ الصّمْـتُ فِي كُبْرى نَـــوَادِيَهامَ
فَهَلْ أرَى الـــدَّارَ دَاراً بَعْـــدَمَـــا فَقَـــدت
رُوَاءَهَـــا وَفَشت فِيهَـــا مَسَـــاوِيَها ؟
وَهَلْ تَعُـــودُ إلىَ فَـــاسٍ مَبَـــاهِجُهَـــا
وَيَمْسَحُ الـــدّمْعَ مِـن عَيْنِيـــهِ بَـــاكِيهَـــا ؟

صورة لمدينة فاس